خصائص البصرة في

كتاب البلدان لابن الفقيه الهمداني

أ.د. صباح إبراهيم الشيخلي

جامعة بغداد / كلية الآداب

توطئـــة :

من انتشار الإسلام وتكوين دولة العرب المسلمين بدأت خصائص المدن والبلدان تظهر في أقوال أهلها ومن استقر فيها من العرب المسلمين توضيحاً لسمات ومميزات هذه المدن والبلدان[١]. وقد شملت هذه الخصائص المفاخر والمثالب للمكان وساكنيه وكانت متنوعة الجوانب جغرافية واقتصادية واجتماعية وإدارية وفكرية وثقافية.

كانت البصرة من بين المدن التي عُرفت بخصائصها، ولعل أول ما ذكر في ذلك، ما قاله أحد الموفدين البصريين إلى الخليفة عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) عن خصائص مدينتهم الجغرافية والاقتصادية[٢]. ثم بدأت الجماعات المستقرة في البصرة (وغيرها من الأمصار الإسلامية) تشعر كل منها بمصالحها المشتركة وطابع مدينتهما أو أقليهما من حيث مميزاته وسمات ساكنيه.

ومع نشاط العرب المسلمين بالتاليف والتدوين، بدأت عنايتهم بتدوين خصائص المدن والأقاليم ذاكرين مفاخرها ومثالبها، وكان ممن أهتم بتدوين ذلك من كتابنا التراثيين، هم الكتاب الذين وجهوا اهتمامهم للكتابة عن البلدان والأقاليم. ومن بين المبكرين منهم كان ابن الفقيه اللهمداني في القرن الثالث الهجري/ التاسع للميلاد، الذي عزمنا بعد الاتكال على الله، الاعتماد على ما سجله من معلومات، تخص خصائص البصرة، في ورقتنا هذه.

عاش ابن الفقيه في أواخر القرن الثالث للهجرة/ التاسع للميلاد وربما أوائل القرن الرابع للهجرة/ العاشر للميلاد[٣]، لا نعرف عنه الا القليل جداً، وكل ما استطاع ابن النديم أن يقوله عنه في "فهرسه" هو انه كان من أهل الأدب وان اسمه أحمد[٤]. وقد نقل ياقوت الحموي في كتاب "معجم الأدباء" ذلك، مضيفاً إليه ما كتبه شروية بن شهردار الديلمي الهمداني (ت٥٠٩هـ/١١١٥م) صاحب كتاب "تاريخ همدان"، والذي ذكر انه: أحمد بن محمد بن اسحق بن إبراهيم الأخباري أبو عبد الله، يعرف بابن الفقيه ويلقب بحالان صاحب "كتاب البلدان" روى عن أبيه وإبراهيم بن الحسين ديزيل، ومحمد بن أيوب الرازي، وأبي عبد الله الحسين بن أبي السرح الأخباري... ولم يذكر وفاته"[٥] فهو أذن من أهل الرواية والأدب، وله كتاب حسن عن الشعراء[٦].

والذي يهمنا، كتابه المعروف بـ"البلدان" وهو كتاب ضخم يتكون من ألف ورقة كما ذكر ابن النديم[٧]، ويقع في خمسة مجلدات عند المقدسي[٨]، وقد الفه حوالي سنة ٢٩٠هـ/٩٠٣م[٩].

ومع الأسف لم نعثر على كتاب البلدان الضخم لحد الآن، والذي وصلنا منه مختصره الذي تم على يد أبي الحسن على بن جعفر الشزري (أو الشيزري) عام ٤٠٣هـ/١٠٢٢م وحققه المستشرق الهولندي دي غويه وطبع عام ١٨٨٥م. ثم عثر في سنة ١٩٢٣ على مخطوط في المكتبة الرضوية في مشهد بإيران على جزء من كتاب البلدان بدايته كما هو موجود في الصفحة الأولى "هذا بقية القول في العراق والبصرة وأخبار دار فتحها...." ثم بعدد المدن والأقاليم الأخرى التي سوف يتكلم عنها. ظل هذا المخطوط مركوناً على الرف إلى ان قام يوسف الهادي بتحقيقه ونشره مع مختصر البلدان سنة ١٩٩٦م. وقام المحقق بجرد ما في المخطوط من معلومات غير موجودة في المختصر والعكس صحيح.

البصرة في "كتاب البلدان":

كتب ابن الفقيه عن أخبار البصرة بشكل متنوع ذاكراً وفي المقدمة (من النسخة الرضوية) أن "البصرة وأخبار دار فتحها والوقت الذي بنيت فيه وما فيها من العجائب، والقول في الابلة، والقول في البطائح..." هو ما سيدونه عنها أولاً ثم يستمر في تعداد محتويات هذا الجزء من كتابه "البلدان". والذي يهمنا في ورقتنا هذه ان المخطوط فيه موضوعات عن البصرة غير موجودة في المختصر وهي:

القول في البصرة، وذم البصرة، ومناظرة بين الكوفيين والبصريين عن المامون.

أما ما نجده في المختصر من معلومات غير موجودة في المخطوط فهي/ فاتخار الشاميين على البصريين (أثناء كلامه عن بلاد الشام) افتخار الكوفيين والبصريين عند السفاح (اثنان القول عن الكوفة). ولابد لنا في البدء من تقديم شيء من التفصيل عن محتويات ما دونه ابن الفقيه عن البصرة في كتابه البلدان وهي:

- ابتدأ ابن الفقيه في "القول في البصرة" (في المخطوط)، بذكر تسميتها ومن ابن اشتقاقها[١٠].
- ثم بدأ بالتفصيل عن تمصيرها زمن الخليفة عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) وبامر منه، بعد أن توجهت جيوش المسلمين قادمة من البحرين إلى أرضها.
- تكلم عن طريقة اختيار الموقع من قبل مجموعة مكونة من أربعين رجلاً وامرأة برئاسة عتبة بن غزوان[١١].
- تطهير منطقة الابلة من الاعاجم وتقسيم غنائمها بين المقاتلين المسلمين.
- قدوم مجموعة من قبائل بني تميم وبكر بن وائل إلى البصرة، فتجمعوا على أرضها وكان عددهم ٣ آلاف رجل سجلوا في الديوان[١٢].
- أصبحت البصرة معسكراً لانطلاق عمليات الجهاد العسكري الإسلامي في أرض العراق.

- تخطيط عتبة بن غزوان للبصرة (وكانت تسمى يومئذ بأرض الهند) وبعد اتخاذها قيرواناً للمسلمين كثر قدوم العرب المسلمين اليها، وكان ذلك عام ١٧هـ(١٣).
- وصف عتبة بن غزوان لطبيعة أرض البصرة وموقعها في كتاب للخليفة عمر (رض الله عنه) كما يسجل ابن الفقيه وصف الأحنف بن قيس للخليفة أرض البصرة من حيث موقعها وطبيعتها(١٤).
- يتكلم ابن الفقيه عن تطور مدينة البصرة العمراني، وما بني فيها من منشآت مع مرور الأيام وحتى أيام الخليفة الرشيد العباسي(١٥).
- يصف ابن الفقيه أنهار مدينة البصرة التي حُفزت لمعالجة مشكلة المياه فيها(١٦).
- دون ابن الفقيه مذاكره بين الكوفيين والبصريين عند الوالي زياد، جاء فيها معلومات عن خصائص البصرة الاقتصادية والطبيعية ومعلومات عن بيوتها من ذو الشرف ورجالاتها المشهورين(١٧).
- اهتم ابن الفقيه بذكر مساجد البصرة وحماماتها ومقابرها ودار السكة فيها، وهي معلومات عمرانية مهمة(١٨).
- يوضح الأهمية التجارية للبصرة ونشاط أهلها التجاري، وكذلك خيراتها الزراعية(١٩).
- سجل ابن الفقيه معلومات عن مستوى المعيشة في البصرة(٢٠).
- اهتم ابن الفقيه بتدين صفات وسجايا أهل البصرة من حيث الكرم والورع والطاعة والصبر والعطف والخلق والحلم وغيرها(٢١).
- كما نجده يسجل مبحثاً في "ذم البصرة" في أقوال بعض الرجال وتبين مثالبها الطبيعية وسرعة خرابها(٢٢).
- دون ابن الفقيه المناظر بين البصريين والكوفيين في مجلس الخليفة العباسي السفاح، وما دار فيها من ذكر خصائص المدنيين مفاخر ومثالب(٢٣).

من المؤكد ان المعلومات التي دونها ابن الفقيه ستزودنا بخصائص البصرة وساكنيها بصورة تفصيلية، خاصة وأنه عرضها بطريقة لا تدلل إلى ميله أو تعصبه إلى أي مدينة أو أقليم، كما يذكر وهو يسجل ما قيل عن مفاخر ومثالب المدن والاقاليم في المناظرات التي اهتم بتدوينها، أنها كانت قد كتبت من باب المعرفة والتسلية وليس من باب الحقد والحسد بينهم.

أما عن منهجية ابن الفقيه في الكتابة عن المدن والبلدان ومنها البصرة فيما وصلنا من كتابه "البلدان" الضخم، فهي كما وضحها في مقدمته التي دونت في المختصر حيث قال:

كتابي هذا يشمل من ضروب البلدان وعجائب الكور والبنيان، فمن نظر فيه من أهل الأدب والمعرفة، فليتامله بعين الإنصاف، وليُعرنا فيه حسن محضره وجميل رأيه.... فاني إنما الحقت في هذا الكتاب ما أدركه حفظي، حضره سماعي من الأخبار والإشعار والشواهد والأمثال[٢٤]، فهو أذن قرر منذ البدء الاهتمام بالكتابة عن البلدان، وان ما دون ليس كل إخبارها بل ما استطاع جمعه وحفظه منها.

لقد قرأ كتابنا التراثيين كتاب ابن الفقيه "البلدان" ووصلنا آراء بعضهم بمنهجيته، فابن النديم يذهب إلى أن ابن الفقيه "أخذ من كتب الناس وسلخ كتاب الجيهاني"[٢٥]. وهنا علينا ان ننبه إلى قضية مهمة ذكرها محقق (النسخة الرضوية)، وهي قول ابن النديم السابق الذكر جعل المؤرخين المحدثين يهاجمون ابن الفقيه ويعدون كتابه هو نسخة من كتاب الجيهاني "المسالك والمالك"[٢٦]. وبالرجوع إلى ما ذكره المقدسي من انه وجد إن كتاب خرداذبة "المسالك والممالك" وكتاب الجيهاني يتفقان في معانيهما "غير إن الجيهاني قد زاد شيئاً يسيراً"[٢٧] وهذا يؤكد إفادة الجيهاني من ابن خرداذبة، الذي استفاد منه ابن الفقيه أيضاً، فهل يا ترى يحق لنا ان نفترض ان الاثنين الجيهاني وابن الفقيه، استفادا من معلومات ابن خرداذبة فجاء التشابه في المعلومات في كتابات الثلاث. كما يذهب المقدسي إلى ان منهج ابن الفقيه هو منهج الجاحظ، ولكن كتاب الجاحظ صغير "وكتاب ابن الفقيه أكثر حشواً وحكايات"[٢٨].

ولا نستطيع إن ننكر، كما فعل غيرنا، بتأثر ابن الفقيه بمنهجية الجاحظ، ولكن هذا لا ينفي بأن ابن الفقيه كان متنوعاً فيما كتبه في "كتاب البلدان" كما يؤكده بتاهي في كتابه، بأنه سيكتب في خصائص وعجائب البلدان، قائلاً: "ولو لم يفدك هذا الكتاب من الأخبار العجيبة والأشعار الطريفة والأمور الغريبة، لكان فيما يفيدك من أخبار البلدان وعجائب الكور والأمصار بلاغاً مقنعاً، فكيف وقد أفادك علم الماضين وأخبار الأولين، وذلك علم المعنيين. ووقفك على الطريقتين وأرشدك إلى الأمرين جميعاً حكمة بالغة وموعظة موجزة، تعرف منه أخبار الماضين، وابنيه من قد سلف من الأولين"[٢٩].

أما المحدثون فقد اهتموا بالنسخة المختصرة من "كتاب البلدان" لابن الففيه، وكان من بينهم كراتسوفسكي الذي ردد ما قاله ابن النديم والمقدسي مؤكداً على تقليد ابن الفقيه للجاحظ في منهجيته وعد هذا الكتاب "عبارة عن نخبة مختارة من الطرائف الأدبية "وأنه كتب " لامتاع المثقف"[٣٠]. ثم عاد وقال عنه أخيراً:

"إذا كان كتاب ابن الفقيه لا يرقى إلى مصاف عدد من مؤلفات معاصريه في ميدان الجغرافية، الا انه من وجهة نظر تاريخ الحضارة يقف أحياناً على مستوى أعلى إذا يقدم لوحة معبره للنزعات والاتجاهات الأدبية للمجتمع العربي المثقف في القرن الثالث للهجرة/ التاسع للميلاد[٣١].

خصائص البصرة كما دونها ابن الفقيه:

لقد شملت الخصائص التي دونها ابن الفقيه في "بلدانه" عن البصرة، وكما ذكرنا آنفاً، على موضوعات متنوعة، وسناخذ أمثلة عدة كشواهد على خصائص هذه المدينة وساكنيها.

الطبيعة الجغرافية:

كانت أولى الخصائص التي دونها ابن الفقيه عن البصرة هو وصف موقعها عند اختيار المسلمين له لجعله مصراً لهم وبامر من الخليفة عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) بعد فتح الجيش الإسلامي القادم من بلاد البحرين لتلك المنطقة. وقد اشترط عليهم الخليفة ان لا يكون

بينهم وبين المدينة المنورة (المركز الإداري للدولة الإسلامية) ماء ففعلوا ذلك بانتقاء مكان "بينه وبين دجلة أربع فراسخ له خليج يجري فيه الماء إلى اجمه قصب"[٣٢]، فكان أعجاب الخليفة به.

وبعد تفحص المكان من قبل مجموعة متكونة من ٤٠ رجلاً وامرأة واحدة، واختياره ليكون مستقراً للمسلمين أرسل القائد عتبة بن غزوان إلى الخليفة واصفاً له قائلاً: "أني وجدت أرضاً كثيرة القضة (حصى صغار مكسرة) في طريق البر إلى الريف ودونها منافع فيها الماء وفيها قصباء"[٣٣]. فوافق الخليفة واختط عتبة بن غزوان بالموقع المسجد ودار الإمارة وكان ذلك عام ١٧هـ/٦٣٨م.

كان موقع البصرة موقع افتخار من قبل سكانها ومن استقر بها من العرب المسلمين دائماً. ففي مناظرة بين البصريين والشاميين أيام الخليفة المعتز العباسي، نجد ان أبو عباد محمد بن سلمة البصري يحدد موقعها بدقة ويوضح مميزاتها في قوله:

"لا نعرف بلداً أقرب براً من بحر، وخضراً من بدو، وريفاً من فلاة، وملاحاً من جمال، قانص وحش وصائد سمك، ونجداً من غور من البصرة، فهي واسطة الأرض وغوص البحر، ومفيض الانظار، وقلب الدنيا، ولقد مثلت الحكماء الأرض بصورة طائر فجلعوا الجو جو بما فيه القلب البصرة، والرأس الشام والروم، والجناحين المشرق والمغرب، والذنب السودان"[٣٤]. وهذا تحديد لا يقوله الاعارف بموضع البصرة واجتماع المضادات الطبيعية فيها.

ومن الخصائص الطبيعية التي ادركها العرب المسلمون للبصرة، سريعاً ومنذ تاسيسها، هي مشكلة ملوحة المياه وطبيعة أرضها الرخوة السبخة فقد دون ابن الفقيه قول أحد الموفدين من ساكني البصرة إلى الخليفة عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) وهو الاحنف بن قيس، قائلاً:

"انا نزلنا في سبخة هشاشة، لا يجف ثراها، ولا ينبت مرعاها، ناحيتها من قبل المشرق البحر الاجاج، ومن قبل المغرب الفلاة، فليس لنا زرع ولا ضرع، تاتينا منافعنا وميرتنا في مثل مريء النعامة، يخرج الرجل الضعيف فيستعذب الماء من فرسخين، وتخرج المرأة كذلك...." فما كان الخليفة الا أن الحق أهل البصرة في العطاء، وكتب إلى واليها أبي موسى الأشعري يأمره بحفر نهر لساكنيها[٣٥].

ان مشكلة ملوحة المياه وشحة العذبة منها شغلت البصريين، ولذا حاول ولاتها تباعاً الاهتمام بحفر الانهر لجلب المياه اليها خاصة العذبة منذ أيام الخلافة الراشدة وما بعدها(٣٦).

وبالرغم من مشكلة المياه في البصرة، الا أن ذلك لم يمنع ساكنيها من الافتخار والتباهي بخصائص تخص المياه، وهي ظاهرة المدة والجزر والتي عدوها "أية بينة في مدينتهم"(٣٧). كما قال أبو عباد بن سلمة البصري في مناظرة مع الشاميين، ان أرض البصرة خصت بظاهرة "المد والجزر والخلجان ومقادير الساعات ومنازل القمر"(٣٨). لقد وظف أهل البصرة هذه الظاهرة خير توظيف لسقي بساتينهم وتحكموا في مقادير المياه(٣٩)، كما سنفصل لاحقاً.

ومن الجدير بالإشارة هنا، ان شحة المياه العذبة في البصرة كانت موضوعاً مهماً في تعداد مثالب هذه المدينة من قبل منافسيهم خاصة الكوفيين في المناظرات بينهما وهذا ما دونه ابن الفقيه(٤٠).

النشاط الاقتصادي:

من خصائص مدينة البصرة التي اهتم بتسجيلها ابن الفقيه هي الأنشطة الاقتصادية التي مارسها ساكنيها في مجال الزراعة والصيد والتجارة، وكانت هذه الأنشطة سبباً في ازدهار الحياة المعيشية فيها.

ففي مجال الزراعة، نجد ان البصريين تفاخروا كثيراً في تنظيم السقي والري بمدينتهم معتمدين على نهرها العجيب"(٤١)، فقد ذكر خالد بن صفوان وهو يصف البصرة عند الخليفة الأموي هشام بن عبد الملك قائلاً: "أما نهرها فانه يقبل عند حاجتنا إليه ويدبر عند ربنا منه وله عباب لا يحجبه، ولا يُغلق عنا دون حجاب"(٤٢)، ويسجل ابن الفقيه مقولة أخرى في الموضوع نفسه، ومؤكداً على أهمية ظاهرة المد والجزر في أنهر البصرة واستغلال أهلها لها، فقد ذكر الحجاج بن خيثمة في مجلس البصريين والكوفيين عند الخليفة العباسي المامون، قائلاً:

"أن الله أعطى أهل البصرة ما لم يعط أهل الكوفة وان الماء يغدوا عليهم إذا غدوا إلى ضياعهم فياخذونه إذا أرادوه، وان استغنوا عنه حجبوه"(٤٣). ولكن الكوفيين يصرون على ان مياه البصرة مالحة وان أهلها يعانون بشدة من ذلك(٤٤).

كانت المحاصيل الزراعية من خصائص البصرة التي تفاخر بها ساكنيها فقد قالوا في مذاكرة عند واليها زياد: ان البصرة "أطيب ثماراً، وأكثر أشجاراً، وأكرم انهاراً"(٤٥).

فأشجار النخيل التي اعتمد أهل البصرة في تنظيم سقي بساتينها على ظاهرة المد والجزر، كان مكان فخر البصريين وعدوه من خصائص مدينتهم وعند ابن الفقيه أوصاف للنخل والتمور كتبت بصورة أدبية ممتعة متفاخرين بها على منافسيهم من أهل الشام والكوفيين.

فقد قال أهل البصرة للشاميين "لا شجرة هي أفضل من النخلة" وللكوفيين "لأهل البصرة الرطب الذي ليس في الدنيا أكثر ولا ألذ منه"(٤٦). وحاول أهل الكوفة التفاخر بانواع من التمور والأعناب غير موجودة في البصرة، والشاميين بالكروم والزيتون(٤٧).

وفي المناظرة بين البصريين والشاميين نجد أوصافاً للنخيل والتمور ومقارنتها بالزيتون يشير إلى إعجاب البصريين وتفاخرهم بالنخيل بأسلوب أدبي ممتع، فقد وصف خالد بن صفوان للخليفة الأموي هشام بن عبد الملك النخل قائلاً:

"فالنخل في مكاربه كالزيتون عندكم في منابته، ثم في اكمامه كذاك في اغصانه، ثم هو في أبانه كذاك في زمانه، هُن الراسخات في الوحل، المطعمات في المحل، الملقحات بالفحل، يخرجن أسفاطاً عظاماً وأوساطاً نظاماً، كانما ملئت رياطاً، ثم تفتر عن قضبان اللجين منظومة باللؤلؤ الأخضر، ثم يصير ذهباً منظوماً بالزبرجد الأخضر، ثم يصير عسلاً معلقاً في الهواء، ليس في قربة ولاسقاء، بعيداً عن التراب كالشهد المذاب، ثم يصير أكسية الرجال ويستعان به على العيال"(٤٨).

من خصائص الأنشطة الاقتصادية في البصرة، هي ممارسة أهلها لمهنة الصيد براً وبحراً فالغلات وفرت لها مصائد الحيوانات البرية، والمياه الموجودة حول مدينة البصرة وفترت لها مصائد الاسماك. وهنا يدون ابن الفقيه قول خالد بن صفوان أيضاً وهو يتكلم عن خصائص النشاط الاقتصادي في البصرة أمام الخليفة هشام بن عبد الملك قائلاً: "إذ أخبرك يا أمير المؤمنين، يخرج قانصان فيجيء هذا بالطير الظليم، وهذا بالسمك والشبوط"(٤٩).

أما عن نشاط البصرة التجاري، والذي يعد من الأنشطة المميز فيها بسبب موقعها. فقد ذكرت خصائص عدة منها قول البصريين بانهم "أركب للبحور"(٥٠) . وإنهم مارسوا التجارة في شرقي وغربي أرض الخلافة فهم على حد قول ابن الاهتم البصري "أبعد الناس نجعة في الكسب بصري وخوزي ومن دخل فرغانه القصوى والسوس الأقصى فلابد ان يرى بها بصري أو خوزي أو حيري"(٥١) . وقد أكدت كتب البلدانيين الأخرى على وجود البصريين في بلاد المغرب وأفريقيا جنوب الصحراء، وفي مراكز النشاط التجاري في المشرق.

أما عن ازدهار مستوى المعيشة في البصرة، فنقول ان الأنشطة الاقتصادية المتعددة التي مارسها أهل البصرة جلبت الخير والثراء لأهلها، وكما قال خالد بن صفوان:

" نحن أكثر الناس ساجاً وعاجاً وخزاً وديباجاً وبرذوناً هملاجاً، وجارية مغناجاً، بيوتنا الذهب"(٥٢) . وهذا دليل على ارتفاع مستوى معيشة البصريين، فالكماليات التي يستوردونها كانت تزين بيوتهم، وإنهم قطفوا ثمار أنشطتهم الاقتصادية.

ومما يؤكد على ازدهار الحياة المعيشة ورخص الأسعار فيها ما سجله ابن الفقيه، من انه سئل فتى من أهل المدينة كان قد دخل إلى البصرة وانصرف عنها كيف رأها فقال: "خير بلاد للجائع والغريب والمفلس، أما الجائع فيأكل خبز الأرز والصحناء ولا ينفق في الشهر الا درهمين، وأما الغريب فيتزوج بشق الدرهم..."(٥٣) .

البيوتات الشريفة والرجال البارزين والمتميزين من البصريين:

تفاخر وتباهى البصريون بما عندهم من بيوتات ورجال في مجالات الثقافة والفكر والإدارة، ومن هم أهل السمات والمميزات وعد ذلك من خصائص البصرة.

لقد دون ابن الفقيه ولمرات عدة قوائم بأسماء المتميزين وذوي الخصال في مجالات مختلفة نذكر منهم:

- فخر البصريون في مذاكرة عند الوالي زياد، بأربع بيوتات من بيوتات العرب ليس بالكوفة مثلها: بين بني المهلب، وبين بني مُسلم بن عمر الباهلي من قيس، وبين بن مسمع من بكر بن وائل، وبيت آل الجارود من عبد القيس(٥٤)، واستمر البصريون يتفاخرون بهذه البيوتات بعد ذلك، حيث نجدهم ينكرونها في مجلس الخليفة المأمون منافسين الكوفيين ومباهين بان ليس في الكوفة مثل هذه البيوتات(٥٥).
- وافتخر البصريون برجالات من ذوي الشرف عندهم، وهذا ما نجده في قول أبو بكر الهذيلي البصري في مجلس الخليفة أبو العباس السفاح، قائلاً: "ما كان في تميم الكوفة مثل الأحنف في تميم البصرة، ولا في عبد القيس بالكوفة مثل الحكم بالجارود من عبد القيس البصرة، ولا كان في الكوفة مثل مالك بن مسمع في بكر البصرة، ولا كان في الكوفة مثل قتيبة بن مسلم الباهلي"(٥٦).

ومن رجالات البصرة المذكورين، أبا عمرو بن العلاء كان من أنبل الناس وأفصحهم لساناً، وأبو بكر الهذلي أعلى الناس من الجاهلية والإسلام(٥٧). وعبد بن أبي بكر وطلحة الطلحات بكثر السخاء(٥٨).

ومن السجايا التي تباها بها البصريون وعدوها من خصائص ساكنيها قول عمر بن دارك في أهل البصرة:

"هم أعظم الناس أخطاراً، وأكرمهم جواراً، وأبعدهم في الأرض آثاراً. أهل البصرة أعظم إمرة، وأوسع هجرة، وأعطى للبررة، وهم أعظم أعلاماً، وأوفى زماماً وأكثر أعلاماً، وأجود كفاً، وأحسن عطفاً، وأيمن لواءاً، وأصرف حياءً، وأكرم إخاءً. صبر تحت الريات، وأكرم عند البيات"(٥٩). ومن صفاتهم الطاعة، والورع، والعصبية، والأخلاق الحسنة، والحلم عند الغضب والصبر في الشدائد ويستمر في تعداد الصفات الطيبة والحميدة(٦٠).

وتباها البصريون برجالات الإدارة المميزين عندهم. فمن أمرائهم وولاتهم عبد الله بن العباس(٦١)، وعتبة بن غزوان وأبو موسى الأشعري(٦٢).

وتفاخروا ان من أهل البصرة كُتاب أمر العراق وعدوا منهم: صالح بن عبد الرحمن وهو الذي قلب الدواوين من الفارسية إلى العربية وهو كاتب الحجاج بن يوسف الثقفي. ومنهم المغيرة بن أبي قرة كاتب المهلب. وشيبه بن أيمن كاتب يوسف بن عمر. وتحذم مولى أبي بكر كاتب يوسف. وهارون بن ياسين كاتب خالد بن عبد الله القسري. وجبلة بن أبي معن والمغيرة بن عطية وأخوه سعيد بن عطية(٦٣).

أما عن رجالات الفكر والثقافة، فقد عد البصريون منهم:

الحسن البصري وابن سيرين وهما من أهل الفضل والفقه(٦٤). وفي مجلس الخليفة المأمون تباها البصريون، بأن لأهل البصرة فيلسوفي الإسلام اللذين استخرجا النحو والعروض، أبو الأسود الدؤلي والخليل بن أحمد الفراهيدي(٦٥).

وقد فخر أهل البصرة بخطبائهم وأدبائهم وشعائرهم، فمن بلغاء والخطباء نجد: عبد الله بن الاهتم، وصفوان بن الاهتم، وخالد بن صفوان وشيبه بن شبه(٦٦).

وعد البصريون ان فيهم أشعر وأكثر الشعراء منهم: جرير والفرزدق، وذو الرمة، ويزيد بن الحكم والعجاج، ورؤبة وأبو المنجم(٦٧).

ولذا فقد قال أحمد بن هشام أحد أفراد حاشية الخليفة المأمون في مجلس مناظرة البصريين والكوفيين عند هذا الخليفة قائلاً:

"ما زلنا نسمع أن أهل البصرة أبعد في الأرض أثاراً وأكثر فتوحاً وأبلغ خطيباً وأكثر أدباً"(٦٨).

وهكذا جاءت هذه النماذج التي استشهدنا بها والتي دونها ابن الفقيه في كتابه "البلدان" في خصائص البصرة والبصريين، لتدلل على اهتمام كتابنا التراثيين بالكتابة عن هذه المدينة، حافظين ومخلدين لها خصائصها المتنوعة والكثيرة. فهلا كانت هذه الخصائص محط اعتناء ونظر وافتخار ومباهاة بتطبيق عملي من أهلها دائماً وأبداً، تساؤل اتمنى ان تكون إجابته بالإيجاب الفعلي.

الهوامـــش

(١) ينظر: صالح أحمد العلي "اقوال العرب ومؤلفاتهم في خصائص الشعوب والبلدان"، مجلة المجمع العلمي العراقي، الجزء الثالث، المجلد الثاني والأربعون، ١٩٩٢، ص٥-١٩.

(٢) ابن الفقيه، أبو عبد الله أحمد بن محمد بن إسحاق الهمداني، كتاب البلدان، تحقيق يوسف الهادي، (دار عالم الكتاب، بيروت، ١٩٩٦)، ص٢٣٢.

(٣) يذكر محقق كتاب "البلدان" ان ابن الفقيه عاش ما بين سنة ٢٣٠هـ و٣١٨هـ على الأقل (مقدمة كتاب البلدان، ص١١).

(٤) ابن النديم، محمد اسحق (ت٤٣٨هـ/١٠٤٧م)، الفهرست في أخبار العلماء المصنفين من القدماء والمحدثين وأسماء كتبهم، تحقيق: رضا تجدد، (طهران، لا.ت، ص١٧١).

(٥) ياقوت الحموي، شهاب الدين أبي عبد الله (ت٦٢٦هـ/١٢٢٨م)، معجم الأدباء، ج٤، ص٢٠٠.

(٦) كراتشوفسكي، اغناطيوس يوليا نوفـتس، تاريخ الأدب الجغرافي العربي، ترجمة صلاح الدين عثمان هاشم، ط٢، (بيروت، دار الغرب الإسلامي، ١٩٨٧)، ص١٧٧.

(٧) ابن النديم، الفهرست، ص١٧١.

(٨) المقدسي، محمد بن أحمد بن البناء البشاري (ت٣٧٥هـ/٩٨٥م)، تحقيق: دي غويه، (ليدن، بريل، ١٩٠٦)، ص٥.

(٩) كراتشوفسكي، تاريخ الأدب الجغرافي العربي، ص١٧٦.

(١٠) ابن الفقيه، كتاب البلدان، ص٢٢٧.

(١١) المصدر نفسه، ص٢٢٨.

(١٢) المصدر نفسه، ص٢٢٩.

(١٣) المصدر نفسه.

(١٤) المصدر نفسه، ص٢٣٠.

(١٥) المصدر نفسه، ص٢٣٠-٢٣٣.

(١٦) المصدر نفسه، ص٢٣٣.

(١٧) ابن الفقيه، البلدان، ص٢٣٣-٢٣٤.

(١٨) المصدر نفسه، ص٢٣٤.

(١٩) المصدر نفسه، ص٢٣٤-٢٣٥.

(٢٠) المصدر نفسه، ص٢٣٥.

(٢١) المصدر نفسه، ص٢٣٦-٢٣٧.

(٢٢) المصدر نفسه، ص٢٣٧-٢٤٠.

(٢٣) المصدر نفسه، ص٢٤٠-٢٥٩.

(٢٤) المصدر نفسه، ص٥٨.

(٢٥) الفهرست، ص١٧١.

(٢٦) ابن الفقيه، البلدان، ص٣٩ (المقدمة).

(٢٧) المقدسي، أصل التقاسيم، ص٥؛ ينظر: بارتولد، فاسيلي، تركستان من الفتح العربي إلى الغزو المغولي، ترجمة: صلاح الدين عثمان هاشم، الكويت، ١٩٨١)، ص٧٤-٧٥.

(٢٨) المقدسي، أحسن التقاسيم، ص٥.

(٢٩) ابن الفقيه، البلدان، ص٤٥٥.

(٣٠) تاريخ الأدب الجغرافي العربي، ص١٧٧.

(٣١) المرجع نفسه، ص١٧٨.

(٣٢) ابن الفقيه، البلدان، ص٢٢٧-٢٢٨.

(٣٣) المصدر نفسه، ص٢٣٠.

(٣٤) المصدر نفسه، ص١٦٨.

(٣٥) المصدر نفسه، ص٢٣٢-٢٣٣.

(٣٦) المصدر نفسه، ص٢٣٢-٢٣٤.

(٣٧) المصدر نفسه، ص٢٣٥.

(٣٨) المصدر نفسه، ص١٦٧.

(٣٩) المصدر نفسه، ص١٧٠.

(٤٠) المصدر نفسه، ص٢٥٣.

(٤١) المصدر نفسه، ص١٧٠.

(٤٢) ابن الفقيه، البلدان، ص١٧٠.

(٤٣) المصدر نفسه، ص٢٥٣.

(٤٤) المصدر نفسه.

(٤٥) المصدر نفسه، ص٢٧٦.

(٤٦) المصدر نفسه، ص١٦٨، ٢٥٤.

(٤٧) المصدر نفسه، ص١٦٨، ١٧١-١٧٣.

(٤٨) المصدر نفسه، ص١٧٠.

(٤٩) المصدر نفسه، ص١٦٩.

(٥٠) المصدر نفسه، ص٢٣٧.

(٥١) المصدر نفسه، ص٢٣٤.

(٥٢) المصدر نفسه، ص١٦٩.

(٥٣) المصدر نفسه، ص٢٣٣-٢٣٤.

(٥٤) المصدر نفسه، البلدان، ص٢٣٣.

(٥٥) المصدر نفسه، ص٢٥٨.

(٥٦) المصدر نفسه، ص٢٠٧.

(٥٧) المصدر نفسه، ص٢٥٥.

(٥٨) المصدر نفسه، ص٢٥٦.

(٥٩) المصدر نفسه، ص٢٣٦.

(٦٠) المصدر نفسه، ص٢٣٦-٢٣٧.

(٦١) المصدر نفسه، ص٢٠٨.

(٦٢) المصدر نفسه، ص٢٢٩.

(٦٣) المصدر نفسه، ص٢٥٧.

(٦٤) المصدر نفسه، ص٢٠٨.

(٦٥) المصدر نفسه، ص٢٥٤.

(٦٦) المصدر نفسه، ص٢٥٦.

(٦٧) المصدر نفسه.

(٦٨) المصدر نفسه، ص٢٤١.